الفصل الأول

لماذا... الشريعة الإسلامية ؟

لـــاذا الشريعة الاسلامية ؟ ! ..

سؤال يتردد أحيانا ــ على استحياء ــ بين حنايا الصدور ..
ويتردد آخرى ــ خافتا ــ على شفاه بعض الذين لا يعلمون ..
ويتردد ثالثا ــ غير مستحى ولا خافت ــ على ألسنة بعض من بهرهم تزيين الشياطين من غرب أو شرق ، يدعون لأنظمة قاصرة أو كافرة ..

أو بهرتهم حضارة مادية استطاعت أن تزين للناس وجهها .. فآمنوا بما عندها وهو الباطل ، وكفروا بما عندهم وهو الحق !

هذا السؤال بحاجة الى اجابة ..

بغير تحرج .. حفاظا لحياء الذين يستحيون .

وبيانا للذين لا يعلمون ..

وردا للذين لا يعلمون ولا يستحيون وللذين هزمتهم مدنية الغرب أو الشرق . هزمتهم داخل نفوسهم .. قبل أن تهزمهم خارج نفوسهم .

ردا لأولئك وهؤلاء .. من بنى قومنا .. فانهم أعزاء علينا .. وعودتهم الى الحق . فرحة للحق ..

« لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل ضل بعيره فى فلاة وعليه زاده وشرابه فلما أعياه البحث وأخذه النوم .. استيقظ فاذا بعيره عند رأسه وعليه زاده وشرابه فقال : اللهم أنت عبدى ؟ وأنا ربك ــ قالها من شدة الفرح » ــ أو كما قال . ثم :

« ويزداد الذين آمنوا ايمانـــا ولا يرتـــاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون »[1] .

وللاجابة على السؤال نقول بعون الله ما قلناه فى ساعة عسرة[2] :

« لأنها الأولى والأوفق .. ولأنها الأسمى والأغلى .. فوق أنها الأوجب والألزم » .

ولنحاول بمشيئة الله ــ تفصيل ذلك .

١ ــ الأولى .. والأوفق

المعدن الأصيل . يحتفظ بجوهره .. مهما عدا عليه الزمن ..

والأمة الأصيلة . تحتفظ بجوهرها .. مهما عدت عليها الأحداث ..

وحين تغلب على أمرها .. فان احتفاظها بجوهرهـــا رهين مدى أصالتها ، وكلما خفت هذه الأصالة أو اختفت ، فقدت الأمة جوهرها ، وولعت بتقليد الغالب لها وسارت فى ركابه ، وأكلت من فتاته ، ولعقت فى فضلاته وسعدت داخل نفسها أن منحت ذلك الشرف ! .. والأمثلة على ذلك كثيرة ..

فالشعب الألمـــانى برغم حربين عالميتين ماحقتين ، وبرغم جنود الاحتلال الذين داسوا أرضه ، وحاولوا اذلاله ، ذلك الشعب لم يفقد جوهره ، ولم يسر وراء المحتلين ولا لعق فضلاتهم ، كما فعلت شعوب أخرى حين ركعت تحت أقدام الغزاة ، وولعت بتقليدهم ــ بل استطاع أن يستعيد نفسه وعزمه ، وأن يبلغ حد اقراض أمريكا فى السنوات الأخيرة !

والأمة الاسلامية .. كشف القرآن عن جوهرها الأصيل حين ناداها « كنتم خير أمة أخرجت للناس »[3] ثم أعطى خصائص أصالتها .. أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وايمان بالله ..

وبقيت هـــذه الأمة محتفظة بجوهرها الأصيل لا مئات السنين بل آلافها ، حين استطاعت رغم انحراف كثير من حكامها على مدى التاريخ أن تحتفظ بخصائصها المميزة على غيرها ، وألا تذوب وسط ثقافات واردة من الفرس أو أرض اليونان ، أو تذوب وسط شعوب

---

(١) المدثر : ٣١

(٢) فى الزنزانة ص ١١٠ ــ الناشر دار الشروق .

(٣) آل عمران : ١١٠

غازية مثل الصليبيين أو التتار • بل لقد كان العجيب أن يكون التأثير عكسيا •• من المغلوب للغالب •• حين دخل التتار الغزاة فى الاسلام ، وحين نقلت الحروب الصليبية حضارة الاسلام الى أوروبا لتغيرها بعد القرون الوسطى المظلمة ! ••

فما بال الشرق المسكين يفقد جوهره وأصالته هذه الأيام ؟! ••

ما بال أممه تتسلخ شيئا فشيئا من تقاليدها ، وأخلاقها ، وقيمها وخصائصها الشكلية والموضوعية ؟ ! ••

ما باله أصبح مولعا بتقليد الغرب •• فى ملبسه ، فى مظهره ، فى تقاليده الاجتماعية ، وأخيرا •• فى نظمه وقوانينه ؟ ! ••

ما باله بالأمس كان أستاذا • وأضحى اليوم تلميذا ؟ ! وتلميذا فاشلا •• يترك معين العلم الحق ، ويجرى وراء السراب الخادع •

يترك ما عند الغرب من مخترعات وتقـــدم •• فلا يستوعبه ، ويستوعب طول الشعر ، وارتفاع الحذاء ، والقمصان المشجرة ، ثم اللهو والخلاعة والمجون ؟ ! ••

ورحم الله القائل :

انى تذكرت والذكرى مؤرقة	مجدا تليـــدا بأيدينا أضعناه
أنى اتجهت الى الاسلام فى بلد	تجده كالطير مقصوصا جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها	وبات يملـــكنا شعب ملكناه

* * *

واذا كان من المسلم به أن الفكر المتميز والقانون المتميز احدى خصائص الأمة الأصيلة •• فكيف للأمة الاسلامية أن تعود لها أصالتها •• اذا هى تركت شريعتها وفكرها •• لتأخذ من هـــذا المعين أو من ذاك ؟

كيف للأمة الاسلامية أن تدعى الاستقلال ــ بل الأصالة ــ اذا هى استوردت قوانينها من مكان ، وأخلاقها من مكان ، وتقاليدها من مكان ، وزيها من مكان ؟ ! ••

أليس الأولى أن ترجع الى شريعتها •• عقيدة وخلقا ، وتعبدا ، وتعاملا ؟ ! ••

بلى •• أولى لها ثم أولى !! ••

واذا كان الفقه القانونى يعتبر من علامات نجاح القوانين استمدادها

من حاجات الجماعة • وتلبيتها لرغباتها ، ويعد القانون النابت فيها أنجح القوانين •

أليس الأوفق للأمة الاسلامية أن تعود لقانون عاشت فى ظله سعيدة أكثر من ألف عام • حتى عدت عليه يد العلمانية الآثمة ؟ ! ••

بلى •• انه الأوفق فوق أنه الأولى !!

* * *

٢ — الأسمى •• والأعلى

فى عرف الناس وفطرتهم • لا يتقدم الأدنى الأعلى ، ولا الأصغر على الأكبر •

وتبعا لذلك لا يتقدم قرار الأدنى أو قانونه على قرار الأعلى أو قانونه • وان حدث فانه يدمغ بعدم الشرعية والبطلان !

ومع ذلك • ولطول ما قاست هذه الأمة من تعطيل قانونها الربانى •

فانه يوم من المشرع الوضعى ، فجعل قانون الله فى المرتبة الثالثة بعد التشريع « الوضعى » والعرف •• فقد فرح البعض رغم ثقافتهم العالية وظنوها نصرا للاسلام والمسلمين(٤) •

* * *

نحن نقول فى اليوم خمس مرات : الله أكبر •• الله أكبر ••

ونقول فى كل صلاة سبحان ربى الأعلى •• اذن •• فنحن نعترف أن الله أكبر •• وأن الله أعلى ••

فما بالنا نجعله فى نظامنا وقانوننا هو الأصغر ، وهو الأدنى ونضعه فى المرتبة الثالثة بعد القانون والعرف ؟

لو أن رئيس دولة دعى فى حفل • وتقدم عليه رئيس الوزراء والوزراء • فهل يرضى بذلك ؟ !

---

(٤) من أسف أن يقع فى هذا الأمر الفقيه الكبير المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى حين كتب غداة مشاركته فى وضع القانون المدنى المصرى : ان الشريعة الاسلامية هى المصدر الرسمى الثالث للقانون المدنى المصرى ، وهى اذ أتت بعد النصوص التشريعية والعرف فهى تسبق مبادىء القانون الطبيعى وقواعد العدالة (!) ولاشك أن ذلك يزيد كثيرا فى أهمية الشريعة الاسلامية ويجعل دراستها دراسة علمية فى ضوء القانون المقارن أمرا ضروريا (مقدمة كتابه الوسيط) .

فما بالنا قد رضينا لله .. ما لا نرضاه لأنفسنا ؟

ونحن مخاليق .. والله خالق ..

ونحن نردد على الأقل عشر مرات فى كل ركعة : الله أكبر .. ومثلها تقريبا سبحان ربى الأعلى .

* * *

من أجل ذلك .. علمنا الله هذا الأدب .

حين صدر به سورة تضمنت عديدا من الآداب .

نص فى الآية الكريمة الأولى على أدب واجب مع الله .. ومع رسوله المبلغ عنه : « **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** »[٥] .

وليس المتصور أن يكون ذلك التقدم على الله ورسوله تقدما ماديا . وانما المتصور أن يكون ذلك فى مجال رأى أو قانون أو نظام فكان فهم السلف الصالح لها .. لا يكن لكم رأى ولا شرع ولا قانون فوق شرع الله ورسوله !

ولم نفهمها نحن أبناء القرن العشرين . فجعلنا من آرائنا وقوانيننا ونظمنا ما يتقدم شرع الله ورسوله .. ونزعم بعد ذلك أنا مؤمنون !!

وكانت الآية الثانية : « **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** »[٦] وفهم الفاقهون أن التحريم لا يرد فقط على رفع الصوت « المنادى » بل مثله وزيادة رفع شرع فوق شرع النبى ، أو رأى أو قول فوق رأى النبى صلى الله عليه وسلم !

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وكلمة الله اسم جامع لكلماته ، وبكلماته نزلت شريعته .

ومن ثم كان معنى « كلمة الله هى العليا » : شريعة الله هى العليا !

* * *

وكما لا يتصور أن يكون شرع الله هو الأسمى والأعلى اذا كان ثمة قانون أو شرع يتقدمه . فانه كذلك لا يكون أسمى ولا أعلى اذا تساوى مع شرع آخر ولم يتقدم عليه .

من هنا كان تحذيرنا لواضعى نصوص الدستور فى مصر أن يقولوا

---

(٥) الحجرات : ١ (٦) الحجرات : ٢

ان الشريعة الاسلامية مصدر رئيسى ، لأن رفع التعريف « الألف واللام » يجعل الأمر قابلا لوجود مصادر رئيسية أخرى الى جوار الشريعة الاسلامية .. على قدم المساواة معها ..

ومن ثم لا تكون هى الأعلى والأسمى .. مع أنها كذلك ..

لأنها أولا من عند الأعلى .

ولأنها ثانيا حوت من الخصائص .. ما يجعلها هى الأعلى ..

* * *

هى الشريعة الربانية التى تقيم فى النفس خير حارس وأقوى حارس .. يغنى عن كثير من حراس النظم وزبانيتها .

هى التى حركت يوما سيدة حملت من سفاح ولم يكن يعلم بها أحد لكنها سعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقول له طهرنى .. وطهرنى يومئذ تعنى نفذ فى حكم الاعدام رجما بالحجارة ..

أى قانون يمكن أن يستجيش الضمير ليسعى انسان فى ظله يطلب تنفيذ حكم الاعدام فيه ، على فعل لم يعلمه ولم يطلع عليه أحد ؟

ويومئذ ردها الرسول صلى الله عليه وسلم مرة ومرة .. حتى تضع حملها ثم حتى تفطم طفلها .. لكنها عادت للمرة الثالثة دون تردد ، ودون تفكير فى هرب . لتقول له طهرنى .. ويأمر الرسول المنفذ لما أنزل الله بتنفيذ الحد فيها . ويقول فى حقها : لقد تابت توبة لو وزعت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم .

رحمك الله يا غامدية وغفر لك ذنبك !

ورحم الله شريعة .. حركت مثل الغامدية لتدفع حياتها ثمنا لطهرها !

وعلى العكس من ذلك ، نبصر اليوم قوانين البشر ، لنرى كيف يكون التفلت منها .. ولنجد أن أكثر المتفلتين من القائمين على وضع القانون أو على تنفيذه ، وأقرب مثل لذلك قانون الوظيفة الواحدة فى مصر .

لقد قصد به توفير أكبر عدد ممكن من الوظائف للشباب حتى لا تتفشى البطالة ، وقصد به بلا شك أن يحتفظ كل واحد بعمل واحد .

وعضوية مجلس الشعب ، عمل يقابله أجر وان سموه مكافأة .. هى مائة جنيه غير عديد من الامتيازات تربو عليها كثيرا ، وغير ما يصرف لرؤساء اللجان من مكافآت وبدلات .. ومع ذلك ..

اجتمعت اللجنة التشريعية لمجلس الشعب لتقرر تفسيرا لقانون تحريم الجمع بين وظيفتين ، لتقرر أن عضوية مجلس الشعب ليست

وظيفة ، ومن ثم يجوز الجمع بينها وبين وظائف أخرى مثل عضوية مجلس ادارة شركة أو رئاسة مجلس ادارتها • مما يصل المرتب فيه الى مائتى وثلاثمائة جنيه !!

وهكذا يكون الحال حين يكون الأمر الى البشر يشرع كما يشاء ، ويفتى كما يشاء ، ويحل ما يشاء ويحرم ما يشاء •

وفى مصر كذلك حين انقضوا على أموال الناس يأكلونها بالباطل تحت أسماء عديدة •• قالوا انهم يقصدون القضاء على دولة المليونيرات ، وفى جلسة مجلس الشعب فى ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٩٥ (١٨ ديسمبر سنة ١٩٧٥) طالب عضو بالتحرى عن ٥٠٠ مليونير ظهروا بعد ١٤ عاما من التطبيق الاشتراكى فى مصر بعد أن كانوا قبل الثورة أربعة ! ••

وفى أمريكا كانت محاولة فى الثلاثينات لتحريم الخمر ، أسفرت رغم العقوبات والتهديدات ورغم الاعلام الضخم من أجلها •• أسفرت عن زيادة فى الاقبال عليها •• مما دفع المشرع الأمريكى الى اباحتها بعد تحريمها •

وفى صدر الاسلام ورغم انتشار الخمر فى ذلك الحين • نزل القانون الربانى يخاطب ضمائر المسلمين : **« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »**(٧).

قال الجميع انتهينا •• وقاموا الى براميل الخمر يريقونها على رمال الصحراء •• هـــذه هى الشريعة الأعلى !

* * *

وهى شريعة العدل ••

لأن العدل أحد الأسماء الحسنى •• لمصدرها « سبحانه وتعالى » •

ولأن العدل أحد أوصافها **« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا »**(٨) •

ولأن العدل وسيلة تنفيذها **« ان الله يأمر بالعدل والاحسان »**(٩) •

والعدل فيها « عدل موضوعى » لا يميل مع القربى ، ولا يحيف مع الشنآن •

---

(٧) المـــائدة : ٩٠ ، ٩١ (٨) الأنعام : ١١٥

(٩) النحل : ٩٠

فهذه قرشية ترتكب حدا فيحاول أسامة أن يشفع لها فيقول له الرسول : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وهذا يهودى يتهم ظلما من بيت من بيوت الأنصار . فتنزل تبرئته من فوق سبع سماوات دامغة من اتهمه بالخيانة . رغم أن اليهود فى ذلك الحين أعدى أعداء الدعوة والدولة .

« ولا تكن للخائنين خصيما . (أى مخاصما عنهم) واستغفر الله ، ان الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا » الى أن يقول : **« ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا »** (ثم يوجه الخطاب الى الرسول صلى الله عليه وسلم) **« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما »**(١٠) .

وبالنسبة للقربى يعلمنا ألا نميل : **« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »**(١١) .

وبالنسبة للأعداء يعلمنا ألا نحيف : **« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »**(١٢) .

والله الذى أمر بالعدل ، حرم الظلم : « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »(١٣) .

« والله لا يحب الظالمين »(١٤) ، ولا يقبل السكوت على الظلم : « ان الناس اذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده »(١٥) .

« ما من امرىء ينصر مسلما فى موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته الا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته »(١٦) .

---

(١٠) النساء : ١٠٥ — ١١٣
(١١) النساء : ١٣٥
(١٢) المائدة : ٨
(١٣) جزء من حديث رواه مسلم .
(١٤) آل عمران : ٥٧
(١٥) أبو داوود والترمذى .
(١٦) أبو داوود .

واذا كانت الشريعة قد أمرت بالعدل ، وحرمت الظلم ، فان كل نظام يقوم على الظلم ويمنع العدل نظام ساقط الشرعية •• ولو صلى ، وصام وزعم أنه مسلم[١٧] •

والشرائع التى ادعت العدل ، والتى أرادها البعض بديلا عن شريعة الله ظل عدلها يتغير ويتبدل • حتى كان من تشريعاتها (العادلة) اباحة العلاقات الجنسية الشاذة •

من أجل ذلك كانت شريعة الله هى « الأعلى » •

* * *

* وشريعة الله تحقق « الثبات » ولكن بغير جمود •• تحققه بثبات مصدرها « الوحى » :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »[١٨] •

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته »[١٩] •

فكان هذا أمر الله « القدرى » أن لا تغيير ولا تبديل فيما أنزل وكان مع ذلك أمره « الشرعى » :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته »[٢٠] •

« من كذب على عامدا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[٢١] •

وتحقق بذلك حفظ أصول الاسلام وقواعده الكلية •

لكن ذلك لم يفرض الجمود على الفقه الاسلامى اذ أتاح الله سبحانه لعباده « أن يجتهدوا » : **« ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »**[٢٢] •

وجعل ذلك فى دائرتين :

فيما ورد « ظنى الدلالة » يحتمل أكثر من تأويل •

وفيما سكت عنه رحمة بنا غير نسيان !

ففى هـذا وذاك ترك لنا أن نجتهد • داخل الأصول العامة التى دلنـا عليها وهكذا • كان الثبات • ولم يكن الجمود • لتبقى شريعة الله • هى الأعلى •

---

(١٧) رسالتنا « المشروعية الاسلامية العليا » .

(١٨) الحجر : ٩

(١٩) الأنعام : ١١٥

(٢٠) الأعراف : ٣٧

(٢١) رواه البخارى •

(٢٢) النساء : ٨٣

ويطول بنا الحديث لو عددنا : لم كانت شريعة الله هى الأسمى والأعلى[٢٣] لكننا نجتزىء الحديث لننتقل الى .. الثالثة ..

لم كانت هى الأوجب والألزم ؟

* * *

٣ ــ الأوجب .. والألزم

ليست فقط مسألة الأولى والأوفق .. ولا هى مسألة الأسمى والأعلى .. وحسب !

انها قبل ذلك كله مسألة « الأوجب والألزم » .

بمعنى أن الأمر ليس محل اختيار .. نأخذ شريعة الله أو ندعها .. أو نأخذ الأمر منها أو من غيرها .

لأنه : **« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »**[٢٤] .

* ومفتاح المسألة أن من له « الخلق » له « الأمر » : **« ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »**[٢٥] .

فالمسألة تتعلق بالتوحيد ..

لابد للمسلم وهو يشهد أن لا اله الا الله .. أن يعلم أنها تعنى أن لا خالق الا الله ولا رازق الا الله .. كما تعنى فى نفس الأمر أن لا آمر ولا حاكم ولا مشرع الا الله .

وهى تعنى النفى عن سوى الله هذه الخصائص كما تعنى اثبات هــذه الخصائص لله رب العالمين .

وعلى ذلك فانها اذ تعنى اثبات « الخلق » تعنى نفيه عن غيره ، وكما تعنى اثبات الشرع ابتداء لله تعنى نفيه عن غيره .

وهو ما ورد صراحة .. اثباتا فى قوله : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك »**[٢٦] .

ونفيا فى قوله : **« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »**[٢٧] .

---

(٢٣) راجع بابا مطولا فى خصائص « الشرعية » الاسلامية ، وهى ذاتها خصائص « الشريعة » فى رسالتنا « المشروعية الاسلامية العليا » .

(٢٤) الأحزاب : ٣٦ (٢٥) الأعراف : ٥٤

(٢٦) الشورى : ١٣ (٢٧) الشورى : ٢١

لذلك .. كانت صورة الأرباب من دون الله .. كما تعنى أصنام الحجر يسجد لها وتعبد من دون الله .. فانها كذلك تعنى أصنام البشر تشرع من دون الله تحريما وتحليـــلا .. فتعبد بالطاعة والامتثـــال : **« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »**(٢٨) .

ويفسرها تساؤل عدى بن حاتم « ما عبدناهم » ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولكنهم أحلوا لكم الحرام وحرموا عليكم الحلال فأطعتموهم فتلك عبادتكم اياهم » .

من أجل ذلك نفهم تقدم الكفر بالطاغوت على الايمان بالله .. لأن الهدم يسبق البناء ، كما أن التخلية تسبق التحلية : **« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »**(٢٩) .

وهكذا يرتبط رد الأمر الى الله والانصياع لحكمه بالعقيدة والايمان .

* وتكشف عن ذلك ــ غير ما قدمنا ــ آيات صريحة من كتاب الله : **« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »**(٣٠) .

ثم تعقب الآيات باعتبار الايمان « زعما » ان ترك التحاكم الى الله .. ليكون تحاكما الى غير الله .. وكل ما سوى الله فى منطق القرآن « طاغوت » اذا تحاكم اليه الناس أو تداعوا .. سواء أكانوا بشرا أو حجرا ، أو شرعا ، أو قانونا ، أو مبدأ أو نظاما ، أو « اتيكيتا » يتبع فى المجال الاجتماعى .. الخ .

من هنا نفهم قول الله سبحانه :

« ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا »(٣١) .

ثم يكشف حقيقتهم اذ يدعون الى الحق والى شرع الله :

« واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا »(٣٢) .

فليس الأمر سوى نفاق فى قلوبهم .. ابطان للكفر واظهار للايمان .

---

(٢٨) التوبة : ٣١
(٢٩) البقرة : ٢٥٦
(٣٠) النساء : ٥٩
(٣١) النساء : ٦٠
(٣٢) النساء : ٦١

لكنه ايمان مزعوم مكذوب — بما دل عليه تحاكمهم الى غير الله من الطواغيت .

ثم يبين عاقبة نفاقهم واعراضهم عما أنزل الله .. ما يحيق بهم من مصائب ، وحين تحيق بهم المصائب يقدمون الأعذار .. ما أرادوا الا الاحسان والتوفيق .. التوفيق بين الرغبات .. وبين الحرام والحلال .. بين « متطلبات العصر » ، و « أحكام الدين » !!!

« فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا »(٣٣) .

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا »(٣٤) .

ثم تأتى الخاتمة الحاسمة فى هذه المعانى .. ان الأمر ليس أمر الأولى والأوفق .. وان كان الأولى لنا والأوفق لنا أن نتحاكم الى شريعة الله ، ان الأمر أمر ايمان .. يكون أو لا يكون .. يقدم له سبحانه بقسم . برغم أن ما يقوله الله هو الحق وهو الصدق ، ولكنه التأكيد والتأكيد ، والقسم هنا بنفسه وبذاته وليس بشىء مما خلق .. لأن الأمر يتعلق بألوهيته وربوبيته .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »(٣٥) .

* وربط رد الأمر الى الله والتحاكم الى شريعته بالعقيدة والايمان يتردد ويتأكد فى أكثر من مكان فى القرآن .

لعل أبرزها بعد الربع الخامس من سورة النساء والربع الرابع من سورة المائدة التى تعقب بعد ذكر التوراة بحكم عام يصح فى أهل التوراة كما يصح فى أهل القرآن : **« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »**(٣٦) .

ثم تعقب بعد ذكر أحكام القصاص فى التوراة — وهى معمول بها فى الشريعة الاسلامية — تعقب كذلك بحكم عام يصح فى أهل التوراة كما يصح فى أهل القرآن : **« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »**(٣٧) .

---

(٣٣) النساء : ٦٢
(٣٤) النساء : ٦٣
(٣٥) النساء : ٦٥
(٣٦) المائدة : ٤٤
(٣٧) المائدة : ٤٥

ثم تعقب بعد ذكر الانجيل بحكم عام كذلك يصح فى أهل الانجيل كما يصح فى أهل القرآن : **« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »**(٣٨) .

وبرغم القاعدة الأصولية « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » وبرغم وضوح العموم من بداية قوله تعالى : **« ومن »** فانه يحلو للبعض أن يخص بهذا الحكم أهل الكتاب دون أهل القرآن وذلك بغير مخصص له الأمر الذى لا يجوز فقها . وكأن أهل الكتاب اذا حكموا بغير ما أنزل الله .. كفرة ، ظلمة ، فسقة ، وأهل القرآن اذا حكموا بغير ما أنزل الله .. مؤمنون عدول فوق الشبهات ! ! أمر لا يستقيم .. وتفرقة لا يقرها عقل .. فضلا عن أن تكون من عند الله الذى لا يظلم مثقال ذرة .. ويؤكد العموم ويدعمه ورود الأمر بعد هذه الآيات بالحكم بما أنزل الله وبالتحذير عن الفتنة عن بعض ما أنزل الله ..

وفى سورة النور تعمق لخفايا القلوب . وتلمس لحنايا الصدور يكشف عن حقيقة الاعراض عن شرع الله ، وعن بواعثه المرضية .

« واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون »(٣٩) .

وفى سورة محمد (عليه الصلاة والسلام) تأكيد لمرض القلب . وبيان أنه كراهية الحق : **« والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم »**(٤٠) .

ثم دمغ لأولئك الذين يطيعون هؤلاء الكارهين الرافضين سواء أكانت الطاعة ممن أدنى فى طبقة الحكم .. أو من أولئك الذين يرتضون هذا الوضع الآثم الرافض لشريعة الله .. دون انكار لذلك المنكر بقلب أو يد أو لسان : **« ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر ، والله يعلم اسرارهم . فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم »**(٤١) .

---

(٣٨) المائدة : ٤٧ (٣٩) النور : ٤٨ — ٥٠

(٤٠) محمد : ٨ (٤١) محمد : ٢٥ — ٢٨

فكلا الفريقين كاره .. للحق .. كاره رضوان الله !!

وكلا الفريقين محكوم على عمله بالفشل والاحباط !!

ترى أيبقى لدى المسلمين شك بعد ذلك فى وجوب اقامة شريعة الله ؟ !

أيعرضون عن النور .. ويرتضون الظلام ؟ ! ..

أيعرضون عن الهدى .. ويختارون الضلال ؟ ! ..

أيتركون النبع الصافى .. ويلهثون وراء السراب فى لفح الهجير ؟ !

أيؤثرون ملك ساعة .. على نعيم مقيم وملك كبير ؟ !

ألا فليسمعوا النذير تلو النذير .. خزى الدنيا .. وعذاب الآخرة :

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب »(٤٢) .

« .. قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق .. »(٤٣) .

لكن يبقى السؤال .. كيف نقيم شريعة الله ؟ ..

هل باقامة حدودها ؟ ..

هل بفتح المساجد ورفع المآذن ؟ ..

هل بتطبيقها .. فى الزواج والطلاق .. وما يسمونه بـ« الأحوال الشخصية » ؟

أم أن الأمر أبعد من ذلك وأشمل ؟ !!

ذاك ما نتناوله بمشيئة الله فى الفصل الثانى .

* * *

---

(٤٢) البقرة : ٨٥ (٤٣) الحج : ١٩ ــ ٢٢